أنا وصديقي والحمار

محمود شقير



أنا وصديقي والحمار

رواية

للفتيات والفتيان

محمود شقير

إلى صديقي المجتهد:

محمّد السلحوت

1

أنا هنا في القدس.

وصديقي محمّد هناك في مدينة بعيدة، سافرَ إليها قبلَ سنوات، وحقّقَ فيها نجاحات.

والحمارُ مات. حمارُ صديقي محمّد مات لأنّ الحمير لا تعمّر طويلاً، لكنّ شبحه ما زال حاضراً، ولا يغيب من ذاكرة صديقي كلّما استعادَ تلك الحادثةَ البعيدة، ربّما لأنّنا، نحن البشر، نظلّ معنيّين بوقائعَ نرويها لكي نؤثّث بها رحلتنا في الحياة.

صديقي مقيمٌ في مدينة أمريكيّة اسمها هيوستن. طقسها حارٌّ في الصيف، معتدلٌ في الشتاء. وكنّا كلّما جاء في زيارة إلى القدس، نستعيدُ معاً ذكرياتِنا حينَ كنّا في مقتبل العمر. نتذكّر فادية التي كانت تزورني فأبتهجُ لصوتها الرنّان، ورهف التي كانت تزورُ صديقي محمّد. نتذكّرُ ليلى ذات الشعر الطويل التي كانت تهوى التصوير، وشقيقَها جورج، الذي اختار لنفسه اسماً مستعاراً: حوت البحار، وزميليه أسد الغابات وبرق السماء. وكنّا نبحثُ عن معنى لحياتنا في تلك السنوات، يُحيّرنا الغموضُ الذي يُحيط بنا، ما يدفعنا إلى البحث عن المعرفة من خلال الكتب، كتبِ الأدب، وبخاصّة القصص والروايات.

وكنّا نُرضي رغبتنا الجامحة في المغامرات بالتردّد على دور السينما لمشاهدة أفلام العنف، ولا نكتفي بمشاهدتها، بل نمعنُ في تقليد الممثّلين بأحذيتهم الطويلة العنق، وبأحزمتهم العريضة التي تتدلّى منها المسدّسات. ولم يكن بمقدورنا في سنواتنا تلك أن نمتلكَ مسدّسات. كنّا نكتفي بالأحزمة العريضة وبالجزمات السوداء. نمشي في خُيلاء مثلما يمشي ممثّلو الأفلام.

وكنّا نتعاطفُ مع هؤلاء الممثّلين وهم يتصدّون لمكائد الهنود الحمر ولكمائنهم، حين يبرزون فجأة من خلف هضبة أو كتلة من الصخور الصمّاء، ينهالون على بطل الفيلم وأصحابه بوابلٍ من سهامهم. يتصدّى لهم الأصحابُ ببنادقهم، والبطلُ بمسدّسه الذي لا ينفدُ منه الرصاص، ما يجعل الهنودَ الحمرَ يتكبّدون خسائر فادحة، تضطرّهم إلى الانسحاب.

ولم نكن نعي في ذلك الزمان واقعَ الهنودِ الحمر.

في ما بعد عرفنا أنّ الرجلَ الأبيض غزاهم في عُقر دارهم، واستولى على ديارهم، وقتلَ منهم الملايين، وجعلهم عُرضة للانقراض. لكنّ تلكَ حكاية أخرى جعلتنا في زمن لاحق ننفرُ من أيِّ فيلم يتعرَّضُ للهنود الحمر باعتبارهم الأشرار.

صرنا أعقلَ من ذي قبل. صرنا نعرفُ من هم الأشرار، أو هذا ما كنّا ندّعيه.

وما زال صديقي محمّد يتذكّر ذلك اليوم، حين قام رجلٌ شرّير بالاستيلاء على حماره. وهو لم يكن بطلاً في فيلم، بل رجلاً من لحم ودم، وصديقي لم يكن هنديّاً أحمر.

2

كان فتىً كثيرَ الحركة، بالغَ النشاط، وكان للعائلة حمارٌ أبيض. ينهق في الصباح وفي المساء كعادة كلّ الحمير. يربطه محمّد في حظيرة أمام الدار، ويضعُ له التبنَ والشعير. وفي بعض الأحيان يفكّ قيده، فيمضي إلى الحقول القريبة يرعى العشبَ ويركضُ مثلما يشاء، ثمّ ينبطح على الأرض، يتمرّغ ذات اليمين وذات الشمال لكي يحكَّ جلده ويطرد عنه الذباب.

حين يراه صديقي محمّد وهو يتمرّغُ يزداد اعتقادُه بأنّ الحميرَ هي أسعدُ مخلوقات الدنيا، ولا أدري على أيّ أساس بنى صديقي هذا الاعتقاد! وكنت أتساءل: هل مجرّدُ التمرّغِ على الأرض كافٍ لذلك؟!

في الصباح، يذهب محمّد إلى المدرسة، ويبقى الحمارُ مربوطاً في الحظيرة منتظراً تكليفه بعمل ما، أو ربّما هو لا ينتظر أيّ شيء ولا يفكّر في أيّ شيء.

عصرَ الخميس، يعود محمّد من المدرسة إلى البيت، بيت مكوّنٍ من غرفتين في قرية على تخوم القدس. يتناولُ طعاماً بسيطاً من خبز وبيض وبطاطا وزيتون، ثمّ يمتطي الحمار ويذهب نحو الشرق حيثُ الشارعُ الذي يبعد من بيته كيلومترات عدّة، ينتظرُ نصفَ ساعة أو أكثر إلى أن ينزل

والده من الحافلة القادمة من مدينة الخليل، بعد أسبوع من العمل حارساً في ورشة لشقّ الطرق. يمتطي الحمار، وقبل الوصول إلى البيت بلحظات ينهقُ الحمار كما لو أنّه يحتفي بأسلوبه الخاصّ بعودة الرجل الذي كان غائباً عن الدار طوال أسبوع.

صباحَ الجمعة، يمسّدُ محمّد رقبة الحمار وهو لا يعرف بماذا يفكّر، يمتطيه، ويمضي إلى القدس لكي ينقل أكياس الطحين على ظهره من حيّ المصرارة إلى أيّ مكان، وليتقاضى جرّاء ذلك قروشاً قليلة.

في حيّ المصرارة يفقدُ حمار صديقي تميّزه وسطَ وفرةٍ من الحمير المصطفّة هناك، لكنّه يظلّ من وجهة نظر محمّد حماره الأكثر تميّزاً بين الحمير. كان صديقي يعزو هذا التميّز إلى المرتبة الأولى التي كان يحرزُها حماره حين يركبه في ساحة القرية، وهو مستعدٌّ لخوض السباق مع الأولاد الذين يركبون حميرهم، ويستحثّونها لتسبقَ حمارَ محمّد، ولكن من دون جدوى. كان حمار محمّد هو المتفوّق في كلّ سباق، إلا ما ندر في قليل من الحالات.

في ذلك الصباح، في يوم جمعة من أيّام الربيع، والنسيمُ العليل يداعبُ وجوه الناس والأمكنة، كان محمّد يقف

أمامَ حانوت لبيع الطحين، يقبضُ بحنان على رقبة حماره الرشيق، يتأمّل الحمار وهذا الطقس الجميل، وإذا برجل حادّ النظرات يقتربُ منه وعلى ثغره ابتسامةٌ غامضة. قال له: لديّ كيسُ قمح في البيت، وأريدُك أن تذهب معي لإحضاره إلى هنا، لكي أبيعَه لصاحب الحانوت.

أضافَ بلهجة خافتة وهو حريصٌ على ألا يسمعَه أحدٌ في الجوار: أعطيك نصفَ دينار.

شعر محمّدٌ بارتياح، لأنّ هذا المبلغَ لا يُتاح له بسهولة. تشجَّع وركب حماره ومضى مع الرجل. مشى الحمار مسرعاً في شارع السلطان سليمان، واجتاز الطريقَ إلى راس العامود، ومن ثمّ إلى قرية العيزريّة. بدا الحمار كأنّه موافقٌ على الصفقة الرابحة، ولم يلتفت إلى يمين أو شمال. كانت بيوت قليلة تنتشر على جانبي الشارع، وفي السماء غيومٌ بيضاءُ تتمطّى بكسل، كما لو أنّها نهضت من النوم قبلَ لحظات.

كان الرجل يمشي خلفَ الحمار من دون تذمّر.

بعدَ نصف ساعة قال: أنا تعبت.

خجلَ صديقي ونزل عن الحمار، ولم يُبدِ الحمار أيّ اعتراض.

امتطى الرجل الحمار، ولمّا اقتربا من خلاء وعر وصخور توجّسَ صديقي محمّد وقال: ابتعدنا كثيراً، أين بيتك؟

قال الرجل: بيتي بعيد.

أشار بيده نحوَ الشرق وقال: هناك خلفَ تلك التلال.

شعر صديقي بالخوف، وأدرك أنَّه واقعٌ في مأزق. كان الخلاء متراميا ممعناً في الصمت، والصخور متجهّمة لا تبدي أيّ إحساس. نظر محمّد نحو الرجل وقال: سيمضي وقت طويل ونحن لم نصلْ بيتَك بعد، وأنا لم يسبقْ لي أن تأخَّرتُ عن البيت.

قال الرجل: عُدْ إلى البيت، وأنا أعيدُ لك الحمار في الغد، قُربَ الحانوت.

لم يقتنع محمّد بهذا الكلام، ويبدو أنّ الحمار لم يقتنع به أيضاً لأنّه تردّد في سيره. قبض محمّد على رقبته وأوقفه عن السير وقال:

- انزلْ عن الحمار.

لكمه الرجلُ على وجهه فانطرح على الأرض، ومن المؤكّد أنّ الحمارَ شعرَ بأمر غريب، فنهق بصوت رخيم. وبعد لحظات، نهض محمّد وفي يده حجر، قذفه نحو رأس الرجل، حنى الرجل رأسه فلم يصبه الحجر، ثمّ نزل عن الحمار، وانهالَ على محمّد بالضرب، ضَرْب عشوائي لا يشبه ما يحدثُ في أفلام العنف، ولم يتركه إلا حينَ سقط على الأرض مُغمىً عليه. وكان بإمكان الحمار أن يتدخّلَ

في الشجار بقائمتيه الخلفيّتين، لكنّه لم يفعل، ربّما لأنّه لم يدرك تفاصيلَ المشهد على نحوٍ صحيح.

حين نهضَ محمّدٌ على ساقيه تلفّت حوله، ثمّ نظر نحو البعيد، فلم يرَ أحداً. كان غراب ينعق في السماء، وكان الرجلُ قد غاب خلفَ مُنعطف على مسافة ما.

حدثَ ذلك في يوم مشهود من أيّام شهرِ آذارَ من العام 1957.

3

بعدَ سنوات من تلك الحادثة، جاء صديقي إلى القدس بابتسامته المعهودة منذ أيّام الصبا، وكان شبحُ حماره يرقدُ في الذاكرة، والزمانُ غير الزمان. حلّ في فندق السان جورج في شارع عمرو بن العاص القريب من مبنى سينما الحمراء.

كنّا شاهدنا أفلاماً كثيرة في هذه السينما التي لم يعدْ لها وجود الآن، فقد أُهمل المبنى مع بدء الانتفاضة الأولى في العام 1987، واستمرّ ذلك سنوات، ثمّ جرى ترميمُه وتحويلُه إلى صالة للأفراح. كنت كلّما مررت من هناك أتذكّر وجوهَ ممثّلات أحببتهنّ، ووجوه ممثّلين نالوا الإعجاب.

تأسّى صديقي على دار السينما التي توقّفت عن عرض الأفلامِ، وقال إنّه لن يمكثَ في القدس سوى يومين، وكان واضحاً من تصرّفاته أنّه حريصٌ على وقته ووقت الآخرين. التقيناه، أنا وعدد من الأقارب والأصحاب، وكنتُ أرى، رغمَ التبدّلات التي طرأت على ملامحه، أنّه ما زال الفتى الذي عرفتُه من قبل. واعتقدتُ أنّه كان يرى، رغم التبدّلات التي طرأت على ملامحي، أنّني ما زلت ذلك الفتى الذي يكبره بعامين. وبدا أنّ حسَّ المغامرة ما زال يَسكننا رغم كرّ السنين.

تحدّثنا عن سينما الحمراء وأفلام المغامرات، عن تأثّرنا بتلك الأفلام.

تحدّثنا عن الحمار. استيقظت الذكرى وحضرت التفاصيل التي رواها محمّد وهو يبتسم، ثمّ تأسّى على حماره الذي سرقه منه لصٌّ أفَّاق. وكان أمراً لافتاً أنّ الحمار استسلم آنذاك لمشيئة اللص، ولم يدرك أنّه ذاهب إلى مصير مجهول. تذكّر صديقي كيف حاول أن يلاحق العيّار إلى باب الدار، جرياً على مثلنا الشعبي. ذهب في الصباح التالي إلى حيّ المصرارة، وانتظر بضعَ ساعات لعلّه يرى الرجل قادماً ومعه الحمار، ولكنْ من دون جدوى.

عاد في ذلك النهار إلى البيت وهو حزين، فلم ينتبه إلى جمال الطبيعة من حوله، وإلى الغيوم التي تتمطّى في السماء. قال له والده: لا تحزنْ يا ولدي.

ثمّ قال: بلادنا سُرقت منّا، فهل تريدنا أن نتأسّى على سرقة حمار؟!

قال محمّد ونحن نتسامرُ في صالة الفندق المقدسي: يومَها شعرت بالحزن مرّتين، مرّة على البلاد التي سُرقت، وأخرى على الحمار.

قال إنّه لا يدري إنْ كان الحمار فكّر في المصير الذي انتهى إليه، أو إنْ كان شعر بمرارة الفراق.

4

وكنّا انزعجنا، أنا وصديقي محمّد، من هذه السرقة، بل من هذا الاستيلاء على الحمار في وَضَح النهار.

لذلك، اتّخذنا القرار الذي لا رجعة عنه: سنوظّف خبرتنا التي اكتسبناها من الأفلام البوليسيّة في البحث عن الحمار. انتعلنا جزمات مناسبة لقَطع المسافات وللتجوال في المناطق الوعرة، ووضعنا على رؤوسنا قبّعات شبيهة بقبّعات الممثّلين، ومضينا نحو المنطقة التي تمّ فيها الاستيلاء على الحمار.

كانت منطقةً خاليةً من البشر، لها وحشةٌ ورهبة، وكنّا ننصبُ كميناً يمتدّ كلّ مرّة ساعة أو ساعتين لعلّ اللصّ يمرّ من هناك. ولم يكن يُعكّر صفوَ الطبيعة الساكنة سوى نعيقِ الغربان التي تطير على نحو منخفض، وعيونها على الأرضِ لعلّها تجد صيداً تنقضّ عليه من دون إبطاء.

داومنا على تلك الحال سبعةَ أيّام. كنّا نغادر المدرسة ونذهب فوراً إلى ذلك الخلاء، ننصب الكمين وننتظر، لعلّ اللصّ جاء إلى المدينة في الصباح، ولا بدّ له من أن يعودَ بعد العصر إلى بيته. وكنّا غير متأكّدين إنْ كان البيتُ موجوداً في تلك المنطقة بالفعل، أم إنّ اللصّ أتى بصديقي إليها ليسهُلَ عليه الاستيلاءُ على الحمار.

وحينَ لم نحقّقِ الغاية المرجوّة، داومْنا كلّ يوم جُمعة في السوق الواقعة قربَ سور المدينة التي تُباع فيهَا المواشي والدواب.

قلنا: ربّما جاء اللصُّ بالحمار إلى السوق.

وقلنا: سنوسعُه ضرباً جرّاء فعلته النكراء.

كنّا نراقبُ تجّار المواشي والدواب، وندقّق في ملامحهم. كانت هذه التجربةُ تثيرُ حماستنا، إذ اختبرنا من خلالها قُدرتَنا على تقمّص شخصيّات الممثّلين الذين يتعقّبون الجرائمَ والمجرمين في الأفلام، ووضعنا خبرتَنا في التحرّي وتمثيل الأدوار على المحكّ من دون تردّد أو استنكاف.

وكنّا اعتقدنا آنذاك أنّ الحمارَ سيفرحُ حين نعثرُ عليه ونخبره بجهودنا التي بذلناها من أجله.

وكان صديقي محمّد وصفَ لي ملامحَ ذلك اللصّ، قال: لديه دمغةٌ داكنة فوق حاجب عينه اليمنى.

قلت: ربّما هي دمغةٌ مصطنعة للتمويه.

قال صديقي بعد أن فكّر في ما قلته: ربّما.

وقلنا: قد يأتي متخفّياً في هيئة شيخ وقور، أو رجل دين ذي لحية بيضاء. دقّقنا النظرَ في الوجوه وتفحّصناها. استعرضنا بأعيننا مُختلفَ الدوابِّ المعروضةِ هناك، بل

إنّنا استعرضنا الأغنام كذلك، للتأكيد على براعتنا في الملاحظة، ولم نعثر على الحمار.

قال صديقي ذاتَ نهار: يبدو أنّني فقدتُ حماري إلى الأبد، ولم يبقَ أمامي إلا الاستعداد لمواجهة الأشرار على نحو صحيح.

كانت تلك لحظةً حاسمةً في حياة صديقي. احترمتُ لحظته تلك، رغم قناعتي بأنّ تقمّصَ أدوار الممثّلين لم يغادره بعد، ولم يغادرني كذلك.

5

التحق بالنادي الرياضيّ في المدينة، بعد أن قرّر تعلّم الملاكمة ليكونَ مؤهّلاً لمواجهة الأشرار.

قال إنّه يرى شبحَ حماره في المنام، يراه وهو ينهق ويستغيث، فيهبُّ من نومه مزعوجاً لأنّه غير قادر على نجدته. لذلك، أصرَّ على تعلّم الملاكمة لأنَّ فيها الردَّ على الضعف الذي جرَّبه أمام لصٍّ غدّار.

ولم أشأ أن أتعلّم الملاكمة. آثرتُ أن أمارسَ رياضة رفع الأثقال. كنّا نذهب أنا وصديقي عصر كلّ يوم إلى النادي، هو يتدرّبُ على الملاكمة، وأنا أمارسُ رفع الأثقال، ثم يعود كلٌّ منّا إلى بيته.

بعدَ شهرينِ توقَّفتُ عن رياضة رفعِ الأثقال لأنّني لم أحرزْ فيها تقدُّماً ملموساً.

وبعدَ ثلاثة أشهر من التدريب الشاق، خاض محمّد أولى مبارياته في الملاكمة.

سُرَّ والدُه من إصراره على خوضِ المباراة. أخذه إلى مطعم في القدس القديمة، وأكلا لحوماً مشويّة ولبناً وخضروات، وقال إنّ هذا ضروريٌّ لكي يذهبَ ابنُه إلى المباراة، وهو قادرٌ على احتمال الجهد المطلوب منه على حلبة الملاكمة.

قال لي صديقي: كنت ألتهم الطعام وأنا أرى حماري يرنو إليّ بعينيه من بعيد، كأنّه ينتظرُ أن آتيه بالخلاص.

وقال: كم أشفقتُ عليه وهو يرنو إليّ وأنا أتهيّأ للمباراة!

خاضها صديقي من دون تردّد، بذل جهوداً مُضنية للتغلّب على خصمه. كان الخصمُ فتىً متمرِّساً في الملاكمة. ظلَّ صديقي يُناور ويتلقّى اللكمات، ويَكيل لخصمه لكمات تصيبه حيناً ولا تصيبه حيناً آخر، لكنّه بدأ يشعرُ بالتعب، ثمّ خارت قواه أمامَ ضرباتِ الخصم التي ازدادت ضراوة، كما لو أنّه كان يُرجئ تلك الضربات للّحظة الحاسمة.

ولم ييأسْ صديقي محمّد.

خاضَ مبارياتٍ أخرى وفاز فيها، وحين أصبحَ واثقاً من قدرته على ممارسة الملاكمة، راح يتذكّر اللصّ الذي استولى على الحمار، يتأمَّلُ وجوهَ الناسِ في الشوارع وفي الأسواق لعلّه يعثرُ عليه، ليوجِّه له اللكماتَ.

لكنّه لم يعثرْ عليه.

ولم يتوقّف شبحُ الحمار عن زيارته في المنام.

6

ذاتَ مرّة، جاء في زيارة إلى القدس.

جاء وقد ألحَّتْ عليه الرغبةُ في لقاء الأقارب والأصدقاء، وفي الاقتراب من الوطن، والتمتّع بالوداعة التي تتميّزُ بها مدنه وقراه، وبالاعتدال في طقسه الذي لا يعرف التقلّبات المفاجئة، وبالعذوبة التي تنبعثُ من سيل الذكريات.

جاء وفي ذهنه أن يسترخي قليلاً، فلا يجعل الحرصَ على الوقت مكبّلاً له. ذلك أنّه بات مقتنعاً، كما قال لي، بضرورة الاسترخاء بين الحينِ والآخر لكي ينطلقَ من جديد في دروب الحياة، وهو أكثرُ حيويّة ونشاطاً.

كانت لنا، هذه المرّة، فرصٌ وافرةٌ للسمر وللضحك حيناً، والتأسّي على ما فات حيناً آخر. وكان شبح الحمار يُخيِّم على جلساتنا، يحضرُ فجأة من غير تمهيد. يتحدّثُ محمّد باستفاضة عن الحادثة التي وقعت له، يتحدّث عنها كما لو أنّها وقعت في الأمس القريب.

قال وهو يؤكّد على أهمّيّة الحمير في حياة البشر: في المكسيك، يحتفلون كلَّ عام باليوم الوطني للحمير. ينظّمون لها المسابقات، ويُلبسونها أردية جميلة وقبّعات.

قلت: لو ألبستَ حمارك قبّعةً لما خلصتَ من ألسنة الناس.

وقلت، انطلاقاً من أنّ الكلامَ يجرّ الكلام: حين قَصفت الطائراتُ الإسرائيليّة حديقة الحيوانات في غزّة، قتلتْ حمارَيِّ الوحش اللذين كانا في الحديقة، ولصعوبة استيراد حمير أخرى من الخارج، استعانَ أحدُ المواطنين بالدهان الأسود لرسم خطوط على جلد حمارٍ أبيض، عَرَضَهُ للأطفال في العيد على أنّه حمارُ الوحش.

قلت: كم هي مدهشةٌ مخيّلةُ الفلسطينيّين!

أُعجبَ صديقي محمّد بذلك. وقال: فعلاً، كم هي مدهشة!

ثمّ اقترحتُ عليه أن نتمشّى في أسواق القدس القديمة لعلّنا نتذكّر بعضَ جهودنا في البحث عن الحمار، تلك الجهود التي كانت تنطوي على شيء من العبث ومن حبّ المغامرة.

تحمّسَ للفكرة وذهبنا في الصباح المبكّر إليها. دخلنا من باب العمود، وعلى الفور تذكّرنا بائعةَ الخضار التي كانت ترابطُ هناك منذ الصباح.

اتّجهنا إلى سوق باب خان الزيت، وكانت السوقُ تشهدُ اكتظاظاً لافتاً للانتباه. فثمَّةَ نساءٌ كثيرات ورجالٌ يملأون فضاء المكان. اقتربنا من سوق الدبّاغة التي تخفُّ فيها

حركةُ الناس إلا في المناسبات الدينيّة وأعياد الميلاد. زرنا كنيسةَ القيامة وتأمّلنا ما فيها من تصاويرَ وأيقونات، ثمّ خرجنا منها وجُلنا جوْلةً واسعةً في الأسواق، حيثُ تكثر حركة الناس في بعضها وتقلّ حركتهم في بعضها الآخر. في تلك الأثناء، تذكّرنا زملاءنا الثلاثة: حوت البحار وأسد الغابات وبرق السماء. تذكّرنا ليلى، شقيقة جورج، التي احتفظت باسمها أثناء البحثِ عن الحمار، ولم تَرُقْها فكرةُ التخفّي باسم مستعار.

دَخلنا سوقَ القطّانين بفضائها العالي المسقوف، ثمّ دلفنا من بوّابة في نهايتها نحو المسجد الأقصى. تأمّلنا القبّة المذهّبة والساحاتِ الفسيحةَ حولَ المسجد، ثم غادرناه.

في يوم آخر، اقترحتُ على صديقي أن نذهبَ إلى مدينة أريحا.

كنتُ راغباً في أن أشدّ انتباهَه إلى تفاصيل البلاد، فلم يعترض. ذهبنا إليها، وكنّا في شهر تشرين الأوّل، وكان الطقسُ حارّاً.

مررنا بالمنطقة التي تُسمّى الخانَ الأحمر. فوجئ صديقي بمستوطنة للإسرائيليّين فوقها، اسمها: معاليه أدوميم. وفي اللحظة نفسها، ظهر شبحُ الحمار. ولم تحجبْه من ذاكرة محمّد تلك المستوطنةُ الممتدّةُ على قمم الهضاب.

قال وهو ينظرُ من نافذة السيّارة: في هذا الخلاء، في الأرض

التي أقيمت عليها المستوطنة، تمّ الاستيلاءُ على الحمار.

وقال مُستكملاً شريطَ ذكرياته: جئتُ مع ذلك اللصّ إلى هذا المكان الذي تتمُّ سرقتُه الآن.

تسلّينا قليلاً بتذكّر تلك الحادثة. ساوَرَنا أسى خفيف، وكنّا نشعر بأنّ سرقةَ حمار ليست بالأمر الهيّن، لأنّها سرقة في كلّ الأحوال. ولم نمعن في الكلام على السرقة الأكثر فداحة، لكي يمضي يومُنا من دون مُنغّصات.

وصلنا أريحا.

أمضينا ساعات عدّةً فيها.

وكان لا بدَّ لشمس ذلك النهار من أنْ تُعيدَني سنوات كثيرةً إلى الوراء، إلى البنتين الجميلتين رهف وفادية.

7

هو نهارٌ مُشمسٌ عشتُه قبلَ سنوات، وكنّا في الأسبوع الأوّل من شهر أيّار 1957.

ذهبتُ آنذاك إلى أرضنا المزروعة تيناً وعنباً وزيتوناً وأشجاراً أخرى، وكانت برفقتي شقيقتي أمينة التي تصغرني بثلاثة أعوام. رحتُ أقصُّ بمقصّ التقليم الأغصانَ الزائدة النابتة على جذوع أشجار الزيتون، تحملها أمينة وتجمعها في طرف الأرض. كنّا مثل مزارعيْن نشيطيْن، نشعر بألفة نحو الأرض والشجر. وحين تعبتُ استلقيتُ تحت شجرة التين، وفي الأثناء غادرتني أمينة وعادت إلى البيت.

كان ظلُّ الشجرة يَغمرني بحنان، وفجأة رأيتُ فتاةً تَصغرني بعام أو عامين، سمراء لها عينان عسليّتان وشعر طويل. ربّما كانت في الخامسة عشرة أو في الرابعة عشرة. قالت لي مُعاتبة: أنت وصديقك محمّد مقصّران.

سألتها: هل تعرفينني؟ وهل تعرفين صديقي؟

قالت بثقة زائدة: أعرفكُما وأتابع حبّكما لأفلام السينما.

سرّني كلامُها وسألتها: هل لي أن أتشرّفَ بمعرفة اسمك؟

- اسمي فادية.

- أهلاً يا فادية. اسمي محمود.
- أهلاً بك يا محمود.

تأمّلتُ وجهَها الصبوحَ وسألتها: لماذا نحن مقصّران؟

قالت: صديقُك فقدَ حمارَه، والحمارُ الآنَ في ضيق، وأنتما لاهيان منصرفان إلى مشاهدة الأفلام.

سألتها: هل تحبّين الأفلام يا فادية؟

قالت وعلى ثغرها ابتسامة: أحبّها، وحين تذهبُ أنت وصديقك إلى دار السينما أكون أنا هناك.

دُهشت من كلامها وسألتها: تكونين هناك؟

قالت بحزم واختصار: نعم.

لم أصدّق أذنيّ وأنا أصغي لهذا الصوت الرنّان.

صحوتُ، ورحتُ أتلفّتُ حولي، ولم أجدها.

نهضتُ، وركضتُ نحو مُرتفع من الأرض، وجعلتُ وجهي صوبَ بيت صديقي وناديته بأعلى صوتي: يا محمّد، يا محمّد.

أطلَّ محمّد من باب البيت، وبدا كما لو أنّه كان ينتظرُ النداء. جاءني راكضاً. حدّثته عن فادية. حدّثني عن فتاة في الرابعة عشرة أو في الثالثة عشرة جاءته ليلاً، شقراء، لها عينان زرقاوان وشعر طويل.

سألتُه: هل عرفتَ اسمها؟

قال: اسمها رهف، وهي مُغرمة بأفلام السينما.

قلت: اسمها بالغ الجمال.

قال: اسمُ فادية أيضاً بالغ الجمال.

وقال إنّ رهف قالت له الكلام نفسه الذي قالته لي فادية. صمتنا لحظات ثمّ أدركنا أنّ علينا واجباً لا بدّ من القيام به مهما كانت الصعوبات.

قلت لمحمّد: دعنا نخبرْ مخفرَ الشرطة لعلّه يساعدنا في العثور على الحمار.

قال: والدي ذهبَ إلى المخفر، ولم يُفده بشيء.

قلت: ننشرُ إعلاناً في الصحيفة اليوميّة، نذكرُ فيه لونَ الحمار وشكلَ ذيله وأذنيه، ونقدّم جائزةً مُجزية لمن يعثر عليه.

قال وهو يمطّ شفتيه: باللّه عليك، هل يختلفُ ذيله عن ذيولِ الحمير؟ وما هو شكل أذنيه؟ وكيف يمكن العثور عليه وفقاً لهذه المواصفات؟

وقال: حتّى لو قلنا إنّه حمارٌ أبيض، له قوائمُ قويّةٌ وجسد متين، فثمّةَ حميرٌ على هذه الشاكلة.

فكّرتُ في كلامه ولم أجادله. قلتُ معاتباً بعدَ صمت: ليتكَ وضعتَ لحمارك وسماً مثلما كان جدّي يفعل مع أغنامه. ثم شرحتُ له الفكرة: كان يمكنك أن تكوي بطنَ الحمار بالنار لكي يظلّ الوَسْمُ ظاهراً على جلده فتعثرَ عليه إنْ ضاع أو إنْ سرقه لصٌّ غدّار. أو كان يمكن أن تضعَ وَسْماً على جلده بالدهان. تدهنُ بطنه أو ظهره بدهان أحمر أو أزرق.

هزَّ رأسه وقال: لا ينفعنا العتب، والوقتُ يمضي ونحن لم نتقدّم خطوة واحدة، وقد تزورنا فادية أو رهف أو كلتاهما معاً فتوجّهان لنا مُرَّ العتاب.

حاولتُ التخفيفَ من قلقه وقلت: ننشر إعلاناً في الصحيفة المحلّية نذكر فيه أنّ لديك حماراً للبيع، ومن يرغب في الشراء يمكنه أن يقابلك في سوق الجمعة. وحين يقرأ اللصُّ الغدّار الإعلان فسوف يأتي، وهو لا يعرف أنَّك صاحبُ الإعلان، لكي يستدرجك مثلما فعل في المرّة الأولى.

قال: إنْ رأيته رأيَ العين فسوف أضربه وأدمي أنفه وشفتيه.

وقال: أعتقد أنّ هذا اللصَّ لا يقرأ الصحف.

أقلعتُ عن تقديم الاقتراحات.

وبعدَ ساعات، توصّلنا إلى خطّة بالاعتماد على ما تعلّمناه من أفلام السينما. تَعاهدْنا على إنجازها من دون تردّد، وتعاهدنا على الكتمان، بحيثُ لا تتسرّبُ تفاصيل الخطّة إلى اللصوص، ما يُفسدُ علينا كلَّ ما خطّطنا له وأبرمناه.

8

رُحنا ننفّذُ خطّتنا بمثابرة وحزم وانتباه.

عَقدنا اجتماعَنا الأوّل، واستعنّا بثلاثة من الزملاء للتجوال في أسواق المدينة، وللمرابطة عند بوّاباتها، ولمراقبة أيّ شخص يدخلها ومعه حمار. اتّخذ كل واحد من الزملاء الثلاثة اسماً مستعاراً. أحمد اتّخذ لنفسه اسمَ برق السماء، مصطفى صار أسد الغابات، أمّا جورج فقد صار حوت البحار، وقال إنّ شقيقتَه ليلى على استعداد للتعاون معنا. رحّبنا بها وقلنا إنّ موقفها هذا جدير بالاحترام، ووافقنا بالإجماع على حضورها الاجتماع (كانت تنتظرُ خلفَ الباب لقناعتها بأنّنا لن نرفضَها).

اقترحَ عليها أحمدُ اسماً مستعاراً يُدخلُ الرعبَ في قلوب اللصوص، قال: نسمّيك الذئبة المتوحّشة.

ضحكت وقالت: لا أريد اسماً آخرَ غيرَ اسمي.

نظر إليها مصطفى بإعجاب وقال مازحاً: نسمّيكِ غزالةَ الجبال.

ضحكت وقالت: لا.

عندَ نهايةِ الاجتماع، اتّفقنا على أن يحتفظَ أسدُ الغابات بمحاضرِ الجلسات، وبكلّ الوثائق التي تتمخّض عنها

اجتماعاتنا في ملفّ خاص. وكان أسد الغابات رحّب بعقد الاجتماعات في بيته القريب من باب العمود، رحّبتْ بنا أمُّه كذلك، وكانت تقدّم لنا كؤوسَ الشاي معَ سكّرٍ كثير.

ولم نكفَّ عن قراءة كتب أجاثا كريستي ذات النزعة البوليسيّة، وعن مُشاهدة الأفلام التي يبرع ممثّلوهَا في أداء أدوار المحقّقين الذين يكتشفون الجرائمَ والسرقات. كنّا نخرجُ من دار السينما ونحن متحفّزون لمحاربة اللصوص. كانت ليلى تُبدي انزعاجَها من أفلام العنف التي لا تناسبُ مزاجَها الرقيق. مع ذلك، لم تستنكفْ عن الاستمرار معنا في البحث عن الحمار.

واستعنّا ببائعة الخضار، التي تبيعُ النعناع والخسّ وخضروات أخرى عند مدخل باب العمود. اقترحنا عليها أن تقدّم لنا تقريراً شفويّاً كلّ ثلاثة أيّام، عمّا توصّلت إليه من ملاحظات. ولم نطلب منها تقريراً خطيّاً، لأنّنا خشينا ألّا تكونَ على دراية بالقراءة والكتابة، فلم نشأ أن نسبّبَ لها أيّ إحراج.

وتركنا لزملائنا الثلاثة ومعهم ليلى حرّيّةَ التجوال في أسواق المدينة. وانهمكتُ أنا وصديقي محمّد في مراقبة تجّار المواشي والدوابّ في سوق الجمعة، الواقعة في مساحة من الأرض بين باب الساهرة وباب الأسباط.

قدّمَ محمّد لزملائنا الثلاثة ولليلى ولبائعة الخضار وصفاً

لملامح اللص، وخصَّ بالذكر تلك الدمغةَ الداكنةَ فوقَ حاجبِ عينِه اليُمنى. ثمّ قال وهو يتقمّصُ دهاءَ محقّق خبير: ضعوا ﴿ الاعتبار أن تكون الدمغة مجرّد علامة مصطنعة يمحوها اللصّ حينما يشاء.

ولم أشأ أن أذكّرَ صديقي بأنّني صاحبُ هذه الملاحظة، وأوّلُ من انتبه إليها، لاعتقادي أنّني لم أكتشفْ شيئاً عظيماً جرّاءَ ذلك.

ورغمَ التقيّدِ بتفاصيل الخطّة التي اعتمدناها إلّا أنّني كنت أخرج عنها في بعض الأحيان، من باب الفذلكة والعبث أو الاجتهاد غير المدروس. جاء رجل ذاتَ يومٍ ومعه بغلٌ يعرضه للبيع. استغرب صديقي حين رآني أُعاينُ البغلَ وأتلمّسُ رقبته وأذنيه.

قال لي هامساً: نحن نبحثُ عن حماري الرشيق، فما حاجتُنا لتفحّص بغلٍ غيرِ رشيق؟

قلت له: هذا تاجرُ دواب، وقد يكون له علمٌ بأمرِ حمارِك.

ثمّ اتّجهتُ إليه وسألته: هل لديك حمارٌ للبيع؟

وأضفت: نرغبُ أنا وصديقي في شراء حمارٍ أبيض.

نظر الرجلُ إلينا في تذمّر وضيق وقال: ليس لديّ سوى هذا البغل، وهو أفضلُ من عشرة حمير.

ابتعدنا عن الرجل، ولامني صديقي على خروجي عن الخطّة. ورحنا نتأمّلُ وجوه الناس، ونتصرّف مثلَ المحققين

في الأفلام البوليسيّة. اقتربَ صديقي من رجل ظنّه اللصَّ الغدّار وقد تخفّى بمهارة، وسأله في تهوّر واستهتار، وهو يقعُ في الخطأ نفسه الذي لامني عليه: هل جئتَ لتشتري حمارا أم لتستولي على حمارٍ بالغدر والاحتيال؟

نظر الرجلُ إلى صديقي بغضب وقال: من أنت حتّى تُباغتني بهذا السؤال؟

قلتُ محاولاً التخفيفَ من غضبه: صديقي ظنّكَ اللصَّ الذي استولى على حماره، ونحن نعتذرُ منك.

قال له صديقي: لا تغضبْ يا رجل، نحن في مهمّة سرّيّة يشيبُ من هولها شعرُ الراس.

نظر الرجلُ في حذر واحتراس، وهو يفكّر في كلام صديقي وقال: أنا أقبل الاعتذار.

وأضاف: أنا يا سادتي الكرام قادمٌ لشراء خروفٍ للعيد، لكي يفرحَ أولادي الصغار.

ثم ابتعدَ عنّا وهو يتلفّتُ إلى الوراء. تبادلْنا النظرات أنا وصديقي، بما يعني أنّنا نحرزُ تقدّماً ملموساً في البحث عن الحمار، رغمَ ارتكابنا بعضَ الأخطاء.

9

وذاتَ صباح، قال محمّد إنّه غادر فراشَه في الليلة الماضية واتّجه نحوَ الحظيرة التي اعتاد أن يربطَ فيها الحمار. وجده واقفاً هناك يحرّك ذيله ذات اليمين وذات الشمال.

قال: اقتربتُ منه ومسّدت رقبته، واعتقدت أنّه سيفرح لاقترابي منه، وسيهزّ رأسه ويحرّك أذنيه ويرفع رقبته ابتهاجاً باللقاء، لكنّه غاب في الحال ولم أعد أراه. تلفّتّ حولي ورأيت رهف واقفة على مسافة ما. كانت ترقبُ المشهدَ وهي تهزّ رأسها في أسفٍ واستغراب.

قالت: لن يهدأ لي بالٌ إلا حين تعثرُ على الحمار.

قال: كدتُ أشرحُ لها الخطّة التي وضعناها، ثم امتنعتُ عن ذلك مخافةَ ألا تروقَها فتبدي عليها اعتراضاً لا أستطيعُ رفضه.

وقال: اقتربتُ من رهف، لكنّها ابتعدت وغابت، وكانت شقيقتي أمينة التي تصغرني بسنتين نهضت من نومها واقتربت منّي وسألتني: لماذا نهضتَ من فراشك وخرجت؟

قال: ارتبكتُ ولم أجبّ عن السؤال، وشعرت كما لو أنّني في

قاعة للامتحانات، أتلفّتُ حولي بارتباك، ولا أرى أيّ تلميذ في القاعة سواي. ولم أعرفْ إنْ كنت أحيا في حقيقة أم في خيال. قبضتْ أمينة على يدي، وعدنا معاً إلى البيت.

10

مرّت أسابيع، وكنّا، أنا وصديقي محمّد، قطعنا شوطاً غيرَ قليل في تطبيق الخطّة، تفحّصنا حميراً كثيرة وبغالاً وخيولاً، وطرحنا أسئلة على رجال من مختلف الأعمار. بذلنا جهوداً مُضنية في البحث والتحرّي والتدقيق، ولم نعثر على الحمار.

اعتذرتْ منّا بائعة الخضار وقالت إنّها لن تستمرَّ في أداء مهمّتها، لأنّ عينيها تعبتا من التحديق في وجوه الناس، ومن النظر إلى الحمير التي مرّت في السوق. قدّرنا ظروفها، وشكرناها على تعاونها معنا.

قلنا: نواصلُ الاعتمادَ على ليلى، وعلى الزملاء.

11

قبلَ غروب الشمس بساعتين تقريباً، جاءنا حوت البحار راكضاً. لاحظنا أنّه أرهق نفسه من شدّة الركض، وتمنّينا لو أنّنا نستطيعُ استخدامَ الحمام الزاجل لتبادل المعلومات في ما بيننا. لكنّ الحمامَ الزاجلَ أصبحَ وسيلةً قديمة من وسائل الاتصال، فلم نتوقّف عند هذا التمنّي طويلاً.

جاء حوتُ البحار وأخبرنا أنّه هو ورفيقيه برق السماء وأسد الغابات، ألقوا القبض على رجل له ملامح اللصّ الغدّار، وله دمغة داكنة على وجهه، لكنّها ليست فوقَ حاجب عينه اليمنى. مع ذلك، اعتبروا مجرّد وجود الدمغة دليلاً كافياً لإلقاء القبض عليه. كنّا، أنا وصديقي محمّد، في تلك الأثناء نراقب سوق الجمعة التي لم يكن فيها سوى عددٍ قليلٍ من بائعي المواشي والدواب.

استفسرنا من حوت البحار عن كيفيّة القبض على الرجل.

قال: شاهدناه وهو يُبدي حذرَه منّا ونحن نتعقّبه. اقتربنا منه وأحطنا به، سأله أسد الغابات: هل تُعرّفنا على نفسك؟ قال وقد علت ملامحه تكشيرة: ماذا تريدون منّي؟

لجأ أسد الغابات إلى الحيلة حين رأى الشرَّ واضحاً في عينيه، قال له: أنا الداعي لك بطول العمر، أسد الغابات،

أدعوك إلى المقهى لاحتساء فنجان قهوة.

قال حوت البحار: ذهب الرجلُ معنا إلى المقهى، ثمّ همس أسد الغابات في أذني لكي آتي إليكما في الحال.

ركضنا فوق الرصيف باستعجال، ووصلنا المقهى. وحين رأى صديقي محمّد ذلك الرجل، فوجئ بأنّه ليس اللصّ. تركه يحتسي قهوته ويمضي بعدَ تقديم اعتذار له، قبله وشكرَ أسدَ الغابات على فنجان القهوةَ، وانصرف وهو بادي السرور والانشراح.

تبادلنا النظرات بعدم ارتياح، ثمّ غادرنا المقهى، وكانت ليلى تقفُ عند أوّل السوق وفي يدها آلة التصوير، بحيث لم تترك حماراً مارّاً في السوق إلا التقطت له ولصاحبه صورةً أو أكثر. أرسل أسد الغابات نظرة نحوها ومشى في خيلاء مثل محقّق ذي خبرة، وقال معلّقاً على اعتقال الرجل: تلك محاولة، سوف تتبعها محاولات.

قلنا لأسد الغابات على سبيل المزاح: لم يبقَ عليك إلّا أن تفتتحَ سجناً لاعتقال الناس فيه.

هزّ أسد الغابات رأسه وهو مصمّمٌ على ما انتواه، وأيّده

ﻓﻲ ذلك برقُ السماء وحوت البحار. تبادلنا أنا وصديقي محمّد نظرات لها مغزاها (يعني بالعربي الفصيح: لم نكن موافقَيْن على ما يفكّر فيه الزملاء). ثمّ اقترحنا أن نتفرّق وأن نعودَ إلى بيوتنا قبلَ غياب الشمس، وهذا ما كان.

12

التقينا في الصباح وذهبنا معاً إلى المدرسة.

قال صديقي محمّد إنّه رأى في المنام حُلماً عجيباً.

قال: رأيتنا نذهبُ معاً إلى السينما ومعنا رهف وفادية. كنّا متحمّسين لفيلم يمثّل فيه الممثّل جيف شاندلر، شاهدنا مناظر مقتطفة منه قبل أسبوعين، وبقينا ننتظرُ الفيلم بشغف واهتمام. ولمّا بدأ عرضه على شاشة سينما الحمراء، ذهبنا نحن الأربعة لمشاهدته في المساء.

قال: المفاجأة الكبرى التي أربكتني أنّني رأيتُ حماري يتقدّم باتجاهي ويقترح عليّ أن يدخل معنا لمشاهدة الفيلم. سألته: ألم يقم لصٌّ غدّار بالاستيلاء عليك في وضح النهار؟ قال: نعم، صحيح. لكنّني أستطيع أن أذهب إلى أيّ مكان كلّما هبط الليل على الأماكن القريبة والبعيدة.

قال: سُررتُ لهذا الكلام، ورحّبتُ بحماري، لكنّني صارحته بمخاوفي. قلت له: قد لا يوافق مراقبُ التذاكرِ في دار السينما على السماح لكَ بالدخول، وهنا وقعتُ في حيرة حينَ أخبرني أنّه من المعجبين بالممثّل جيف شاندلر، ولا بدّ من مشاهدته وهو يهزمُ الأشرار. وعدته بأن أتوسّطَ له لدى مراقب التذاكر.

قال: العجيبُ في الأمر أنّ مراقبَ التذاكر رحّبَ بحماري، وتبادلَ معه بضعَ كلمات وطمأنه إلى أنّه توجدُ مقاعدُ مخصّصةٌ للحمير في صالة السينما.

قال: دُهشتُ من كلام مراقب التذاكر ودخلنا صالةَ السينما ومعنا الحمار.

دُهشتُ أنا كذلك لدى سماعي ما قاله صديقي محمّد، وقلت له: هذا فألٌ حسن، سنعثر على الحمار، أنا أتوقّع ذلك.

قال صديقي: من فمك إلى باب السماء، فأنا راغب في العثور على الحمار.

13

عصرَ أحد الأيّام، عقدنا اجتماعنا السادس في بيت أسد الغابات. أحضرتْ أمّه لنا كؤوس الشاي كالعادة مع سكّر كثير. شكرناها وانتظرنا أن تغادر الغرفة لكي نواصل الاجتماع، لكنّها بقيت واقفة تتأمّلنا بهدوء. قالت: أنتم تتعقّبون لصّاً فقيراً وتنسون اللصوص الكبار.

فاجأتنا بكلامها. طرحنا عليها السؤالَ تلو السؤال: من هم اللصوصُ الكبار؟ كيف نتعقّبهم؟ وكيف نعرفهم؟

قالت: حينَ تكبرون تعرفونهم.

سألناها: ما أدراكِ أنّ الذي استولى على الحمار هو لصٌّ فقير؟

قالت ساخرة: لعلّكم تظنّونه أحدَ الأثرياء!

وقالت: ربّما كان أطفاله جائعين.

سألها محمّد: هل يبرّر جوعُ أطفاله له فعلتَه؟

قالت: لا، ولكنِ اعلموا أنّ الجوعَ كافر.

رمتْ كلامها علينا وغادرت الغرفة. حدّقنا في وجوه بعضنا

بعضاً، ولم نعد قادرين على مواصلة الاجتماع. ظلّ كلامُها يرفُّ في فضاء الغرفة مثلَ سربِ حمام. ولم ينقذنا من هذه الحالة سوى أسد الغابات، الذي قال: لا تُلقوا بالاً لكلامها، هي قالت ما قالته لأنّها غاضبةٌ منّي.

- لماذا هي غاضبةٌ منك؟

- كانت علامتي في امتحان الرياضيّات متدنّية.

تعاطفنا معه وواصلنا الاجتماع، ولم يفارقنا الإحساسُ بما في هذه الدنيا الواسعة من غموض ومفارقات.

14

زارتني فادية ورهف معاً. دُهشتُ من زيارتهما التي تتمّ على هذا النحو للمرّة الأولى. في العادة، كانتا تتوزّعان علينا نحن الاثنين: أنا وصديقي محمّد. قالت فادية: جئناك معاً للأهمّيّة القصوى. اضطربتُ قليلاً خوفاً من مفاجأة ما. سارعت رهف إلى القول: صديقك محمّد لديه هذه الأيّام شعورٌ متناقضٌ تجاه اللصّ.

سألتها: كيف؟

قالت: مرّة يحقد عليه، وأخرى يشفق عليه. يتخيّل أطفاله الذين ينامون ليلهم، وليس في بيت أبيهم رغيفُ خبز أو كأسُ حليب.

تقلّبتُ في فراشي، وقلت لهما: منذ أيّام وأنا أرى صديقي لا يستقرّ على حال.

ثمّ وعدتهما أن أبذلَ جهداً لإقناعه بضرورة التفريق بين الواجب والعاطفة.

قالتا بصوت واحد: نعم، التفريقُ بين الواجب والعاطفة.

غادرتا من دون أن تضيفا إلى كلامهما أيّ كلام.

أبديتُ إعجاباً بي حين استطعتُ تلخيصَ أمر معقّد بجملة واحدة: التفريق بين الواجب والعاطفة. وتنبّأتُ لي بمستقبل مرموق.

15

التقينا كالعادة في الصباح وذهبنا معاً إلى المدرسة.

قال صديقي محمّد: رأيتُه يركض في السهول بقوة واقتدار. يصعدُ الجبال وينهق بصوت كالرعد، ثمّ يقترب منّي ويرجوني ألا أيأس أو تفتر همّتي أو تضعف عزيمتي أمام الأشرار.

قال: رأيته يضعُ على رأسه قبّعة مثل تلك التي يرتديها جيف شاندلر، ولا يخلعها إلا حين يشتبك في قتال ضار مع الخصوم. في الحقيقة هو لا يخلعها، بل هي تطيرُ عن رأسه حين يحتدم القتال.

قال: رأيته يعضّ ذراعَ اللصّ الذي استولى عليه، يرفعه عن وجه الأرض، يزيحه نحو اليمين ونحو الشمال، ثمّ يقذف به بعيداً في السماء مثلما يفعل رُماة القرص في مباريات الرياضة.

حدّق في عينيّ وسألني: بماذا تفسّر ذلك؟

قلت: سنعثرُ على الحمار.

خيّم علينا صمتٌ مكلّلٌ بتفاؤل ما، ودخلنا إلى ساحة المدرسة.

16

بعدَ محاولات عديدة للقبض على اللصّ، وبعدَ سبعة اجتماعات، لم نُنجز أيّ جديد.

عقدنا اجتماعنا الثامن، وقال صديقي محمّد: أقترحُ أن يكون هذا آخرَ اجتماع نعقده.

شعرتُ بأنّ الكلمات التي ألقتها على أسماعنا أمّ الأسد، أسد الغابات، ما زالت ترنّ في الأذهان. قلت لنفسي: هذه الدنيا فيها العجبُ العُجاب.

قالت ليلى: سأتفرّغُ لدروسي ولقراءة الروايات.

علّقَ شقيقُها جورج (حوت البحار) مازحاً: سيكثرُ اللصوص في المدينة جرّاءَ ذلك.

ابتسمت وقالت في مناكفة: لا يهمّني ذلك.

قال أسد الغابات: سأبقى محتفظاً باسمي الرهيب هذا، وسأتعقّب كلّ سارق في المدينة، حتّى لو رسبتُ في الرياضيّات.

قال حوت البحار: سأبقى أنا أيضاً محتفظاً باسمي المُهيب.

وقال برق السماء: سأشعلُ سماءَ المدينة بالنور، وسأبقى

محتفظاً باسمي في الصيف وفي الشتاء.

بعدَ هذا الموقف الذي انطوى على تمرّد صريح، لم نشأ أن نعقّد الأمور، وأن نذهبَ إلى انقسام لا تُحمد عقباه.

قال محمّد: أنتم تواصلون تعقّبَ اللصوص، وأنا وصديقي محمود نوقفُ البحثَ عن الحمار، لكنّنا لن ننساه.

كان واضحاً أنّ صديقي ينطقُ من فؤاد مكلوم، ومن شفقة على أطفال جائعين.

ولم أشأ أن أحرجه. حاولتُ أن أثنيه عن موقفه من قبل، لكنّه ظلَّ مصرّاً عليه.

أخيراً، خيّمَ عليّ وعليه أسىً من نوع ما، كما لو أنّه تعبيرٌ عن إخفاق.

لذلك، وللردّ على الإخفاق، واصل محمّد الدخولَ في مباريات الملاكمة، ورحتُ أنا أفكّر في كتابة أطروحة فلسفيّة من عشرين سطراً عن الأخلاق، أقدّمُها لمعلّم اللغة العربيّة في حصّة الإنشاء في العام الدراسيّ الجديد، لعلّها تُسهمُ في التخفيف من انتشار السرقة وغيرها من آفات، مُسترشداً في ذلك ببيت الشعر المعروف:

وإنّما الأممُ الأخلاقُ ما بقيَتْ/ فإنْ همو ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا.

حين حدّثتُ فادية عن الأطروحة وعن بيت الشعر، ابتسمت وقالت: بيتُ الشعر هذا أصبح على كلّ لسان حتّى فقدَ بريقَه.

وكنت أفكّر باختصار الأطروحة إلى خمسة أسطر توفيراً للجهد وللوقت. لكنّ كلامَ فاديةَ شجّعني على اختصارها إلى سطر واحد، كتبتُه بخطّ واضح على ورقة بيضاء: الأخلاقُ هي الأساس، من دونها لا تتقدّمُ الأمم. ثمّ تأمّلت هذا السطرَ فوجدته لا يضيفُ أيَّ جديد إلى بيت الشعر المذكور. لذلك مزّقتُ الورقةَ وقرّرت الإقلاعَ عن الكتابة.

قلت لنفسي لكي أرتاحَ من هذا العبء: أنا مكرّسٌ لتقليد ممثّلي الأفلام لا لكتابة أطروحات فلسفيّة.

وحين استيقظتُ في الصباح شعرتُ بأنّني نمتُ نوماً عميقاً لا يكدّره أيّ شيء.

17

بعدَ أشهر عدّة، في أحد أيّام شتاء العام 1958، شاهدنا، أنا وصديقي، زملاءنا الثلاثة وهم منهمكون في واحدة من مهمّاتهم، حيث بدا أنّ الشغفَ بأفلام المغامرات يُملي عليهم كثيراً من تصرّفاتهم. رأيناهم يتراكضون في طريق أفتيموس المحاذي لكنيسة الفادي المخلّص، والطقس باردٌ والغيوم تحتشدُ في السماء. وللحقيقة، فإنّني شعرتُ بالغيرة منهم، وربّما شعر صديقي محمّد بالغيرة كذلك.

اقتربوا منّا وقالوا إنّهم يتعقّبون لصّاً سيقعُ بين أيديهم، بعد أن نصبوا له شَرَكاً.

قال أسدُ الغابات: الأمر يشبه لعبة القطّ والفأر، أو يشبه أن تضعَ قطعة جبن في قفص لكي تقبض على فأر.

أُعجبنا بحماسة أسد الغابات وزميليه لتعقّب اللصوص.

في تلكَ اللحظة، انهمرَ مطرٌ غزير جعل الناس يغذّون السير. ركضنا نحوَ مدخل سوق العطّارين المسقوفة، وركض معنا الزملاء الثلاثة واحتموا مثلنا من المطر.

انتظرنا أنا وصديقي محمّد إلى أنْ خفّ هطولُ المطر، وكانت المدينةُ متجمّعة على نفسها كما لو أنّها على وشك

البكاء. قال أسدُ الغابات مستبقاً أيّ كلام قد أتفوّه به أنا أو محمّد: حتّى وإنْ عثرتما على الحمار فلَن نتوقّف، نحن الثلاثة، عن تعقّب الأشرار.

لم نعترضْ على كلامه. تمنّينا له ولزميليه النجاح، ثم ودّعناهم وانصرفنا، وكان المطر ينثّ على شكل رذاذ.

18

كان صديقي محمّد قادراً على تغيير مسارِ حياته من دون ارتباك.

حينَ لم توصلْه الملاكمة إلى امتلاك القوّة التي كان يرنو إليها، جَدَّ في طلب العلم، حتّى تخرّجَ في المدرسة بتفوّق ملحوظ، ثمّ مارسَ مهنة التدريس.

وكنتُ مارستُ المهنة نفسها بعد تخرّجي في المدرسة. وكنتُ أبطأ منه في القدرة على تغيير المسار، لكنّني اتخذتُ من التقاعس عن كتابة أطروحة فلسفيّة درساً، وذلك بضرورة بذْلِ الجهد وتقحّم الصعاب مهما استنفدت من تعب ومن وقت.

وكنّا، أنا وصديقي محمّد، نرى في مهنة التدريس، ونحن نربّي جيلاً جديداً، ما يبشّر بأمل ما.

مع ذلك، لم يستمرّ صديقي سوى بضع سنوات في هذه المهنة. أخذه طموحه إلى مهن أخرى وإلى عوالم جديدة، وأصبحت حادثة الحمار تفصيلاً صغيراً مسلّياً في مسار طويل، أو على الأصحّ، في مسارات عديدة مُتوالية.

19

ذاتَ ليلة، في الطقس الشتائيّ البارد، جاءتني فادية ومعها خبرٌ غيرُ سار.

قالت: صديقك محمّد يُعاني من ألم في أذنيه. قلت: ربّما بسبب الكلمات التي كالها له اللصّ. وربّما بسبب تبعات الملاكمة.

وقلت: قد يتأخّر ظهورُ الأذى لسنوات.

قالت فادية: لا، هذه المعاناة سببها هوايةُ الصيد.

وقالت إنّ صوتَ إطلاق الخرطوش من بندقيّة الصيد، وتكرارَه لفترات طويلة، أدّى إلى خرابٍ في طَبلتَي أذنيه.

قالت: كان صديقُك مُغرماً بصيد الأرانب البريّة والثعالب والغزلان.

قلت: هذا مسارٌ آخر جرّب صديقي حظّه فيه.

وقلت: يصيدُ الأرانبَ والغزلان لكي يأكلَ لحمَها، ولا ضَيْرَ في ذلك، ثمّ سألت: ولكنْ لماذا يصيدُ الثعالب؟

قالت فادية وهي تهزّ رأسها في دلال: للثعالب جلودٌ تهفو إليها أفئدةُ السيّداتِ الراغبات في اقتناء القبّعات الثمينة.

وقالت: صديقُك ذهب إلى طبيب مُختصّ وصفَ له سمّاعتين لأذنيه.

أرسلتُ رسالة إليه. وحين جاءني جوابه بعد أيّام أكّدَ لي صحّةَ الخبر، وقال إنّه لم يعدْ يمارسُ الصيد. قال إنّ ما دفعه إلى اعتزاله ليس ضعفَ سمعه الناتج عن صوت إطلاق الخرطوش وحسب، وإنّما أيضاً مشهدٌ ترك أثره فيه، حين حشرَ أرنباً بريّاً في زاوية وكاد يُطلق النار عليه، ثم توقّفَ عن ذلك حينَ رأى نظرةً مُفزعة في عينيه.

قال: بدا كما لو أنّه يستجديني لإنقاذ حياته من موت أكيد.

وقال: أنزلتُ البندقيّة وجعلتها قريباً من ساقي، وبقيتُ أنظر مذهولاً نحو الأرنب، الذي تسلّل بخطوات بطيئة في اتجاه السهل الفسيح، ثمّ انطلق راكضاً كما لو أنّه يُسابق الريح.

قلت لنفسي: لصديقي الآن قصَّة أخرى يَرويها.

وقلت: هكذا هي الحياة، مجموعةٌ متراكمة من القصص والحكايات.

كان ذلك قبلَ أن نلتقي أنا وصديقي من جديد، وقبل أنْ يأتي في زيارة للبلاد من مدينته الكبيرة في البلد البعيد.

التقينا وتبادلنا أحاديثَ كثيرة، بعضُها هزلٌ وبعضها جد.

هكذا هي الحياة.

20

حينَ اشتغل صديقي معلّماً في قرية نائية من قرى شبه الجزيرة العربيّة ظنّه أهلُ القرية صاحبَ خبرة في معالجة الأمراض، وظنّته نساءٌ في القرية فتّاحاً من أولياء اللّه الصالحين، الذين وهبهم ربّ العباد القدرةَ على كشْف المستور.

كان صديقي يُحضر من مدينة جدّة، أدويةً مُضادّة للرشح وللصداع ولارتفاع حرارة الجسم، وبعضَ فيتامينات، ولم يكن يدري أنّه يدخل مساراً لا يخلو من مفاجآت.

أخبرني أنّ أهل القرية كانوا يأتون إليه كلّما مرض أحدُهم للاستعانة به وبأدويته، حيثُ لم يكن في القرية طبيب، ولم يكن فيها مركزٌ صحي، والذهابُ إلى المدينة غيرُ ممكن إلّا بعدَ جهد جهيد، بسبب قلّة المواصلات وبُعد المسافات وفقر السكّان.

قال: رجال القرية كانوا يحتملون أمراضهم إلى حدّ ما، ويُعالجون أنفسهم بالأعشاب وبالكيّ وغير ذلك من الوصفات الشعبيّة، لكنّ النساء كنّ أكثرَ اعتماداً عليّ.

قال: أغربُ حادثة واجهتني، كانت حين جاءتني امرأةٌ ومعها ابنها، وَرَجَتْني أن أخطّ في الرمل للعثور على حمارها الذي ضاع.

وقال: آنذاك تذكّرتُ حماري، وكدتُ أروي لها ما وقعَ لي وله قبل سنوات، ثمّ أحجمتُ عن ذلك وأخبرتها أنّني لا أخطّ في الرمل ولا أجيدُ هذه المهنة التي تنطوي على كذب وخداع.

قال: ابتعدت المرأة عنّي وهي عاتبة عليّ. فما كان منّي إلا أن استنفرتُ عدداً من زملائي المعلّمين ومن الطلاب.

انطلقنا نبحثُ عن الحمار.

وجدناه بعد ساعات يتمطّى بتكاسل عندَ سفح جبل بعيد. قبضنا عليه وأعدناه إلى المرأة التي ظلّتْ على قناعة بأنّني لم أعثرْ عليه إلا بعد أن خطَطْتُ في الرمل، من دون أن أطلعها على ذلك لسبب ما.

21

ولم يطلِّ مُقام صديقي في شبه الجزيرة، أمضى هناك بضعَ سنوات. وكان عليه أن يغيّر المسارَ بعد أن أضجره البقاءُ في أرض نائية بعيدة.

كانت رهف تأتيه بين الحين والآخر، تحرّضه على العودة إلى البلاد. وحين قرّر العودةَ إلى القدس، وقعت حربٌ في العام 1967. وهي ما اصطُلح على تسميتها نكسةَ حزيران. ولم تكن نكسةً بل هزيمةً ما زلنا نُعاني من آثارها حتّى الآن.

لم يتمكّن محمّد من العودة. جاءته رهف وقالت له: أنت عُرضة للخسارة منذُ كنتَ طفلاً (بالطبع، كانت تلمّح إلى حادثة الحمار)، ثمّ حرّضته على السفر إلى مكان بعيد للدراسة. قال إنّه أصغى لكلامها، بل إنّ كلامَها كان يتناغمُ مع رغبة كامنة في نفسه. ولذلك، قرّر السفرَ إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

سافرَ إلى هناك في يوم من أيّام الصيف.

استقرّ في مدينة هيوستن، بهرته المدينةُ الممتدّة على سهل فسيح، والتحق بإحدى جامعاتها وتخرّج في كلّيّة الهندسة، ثمّ عاد إلى شبه الجزيرة العربيّة للعمل في مشروع هندسيّ كبير. ربّما كان الطموحُ إلى وضع أفكاره التي تعلّمها من

الكتب موضع التنفيذ على أرض الواقع هو الذي أعاده إلى تلك البلاد.

ويمكن القولُ إنّ مشاغلَه الكثيرة المستجدّة أنستْه حماره إلى حدّ ما.

عادَ بعد ذلك إلى هيوستن، لتأسيس شركة مصرفيّة كان لها أربعةَ عشرَ فرعاً في المدينة. صارَ صديقي بعد جهد ومثابرة وتعب واحداً من رجال المال والأعمال. ثمّ أضجرهُ الاشتغال في المال طوال سنوات. باع الشركة المصرفيّة، ومالَ إلى الاستثمار في بناء العقارات وتأجيرها لمؤسّسات وشركات.

وهكذا يمكنُ القول إنّه كان يدخلُ في مسار ثم ينتهي منه ويدخلُ في مسار آخرَ مختلف. لا يرتبكُ ولا يهاب، بل يمضي في التجربة إلى أبعد حدٍّ ممكنٍ، وتلك سمةٌ لا تتأتّى بسهولة لأيّ إنسان إلا إذا كان مُجدّاً طموحاً لا يخشى المغامرةَ والتجريب.

كانت رهف تزوره وتطمئنّ إلى إحرازه النجاح تلوَ النجاح، ولم تنقطعْ زياراتها له إلّا حين تعرّف إلى فتاةٍ أمريكيّة من أصولٍ إيطاليّة اسمُها جويس. أعجبَ بها وأعجبتْ به، فتزوّجا بعد قصّة حبّ.

قال صديقي: رأيتها في المنامِ قبلَ أسبوع من التعرّف إليها. كانت في هيوستن منظّمةٌ أسّستها عائلاتٌ أمريكيّة لها علاقة بالجامعات. انحصرَ نشاط المنظّمة في التعرّف إلى الطلّاب الأجانب ودعوتهم الى حَفَلات تُقامُ في بيوت الأعضاء. كانت جويس منتسبةً لهذه المنظّمة، وكانت الحفلاتُ تُقام في أيّام الجمعة والسبت أو الأحد. كنت أشتغلُ في هذه الأيّام الثلاثة لكي أوفّر لنفسي مصروفاً وأنا ما زلت بعدُ طالباً في الجامعة، لذلك، لم أكن أذهبُ إلى تلك الحفلات.

وقال: الحفلةُ الوحيدة التي ذهبتُ إليها كانت يومَ خميس. من حُسن حظّي أنّ الحفلة أقيمت بشكل استثنائيّ في ذلك اليوم.

ولعدم توفّر سيّارة لديّ أخذتني صديقةٌ لجويس إلى مكان الحفلة. في الطريق، حدّثتني الصديقةُ عن جويس، وقالت إنّها كانت في زيارة للقدس.

قال: زيارتها للقدس لفتت انتباهي. شعرتُ بأنّ ثمّة أمراً مُشتركاً بيني وبينها. وعنَدما قابلتُها، أدركتُ أنّها كانت تلك التي شاهدتها في منامي قبلَ أن أتعرّف إليها.

وذاتَ مساء، كنّاً أنا وجويس نتناول طعامَ العشاء في مطعم يقدّم وجبات فلسطينيّة. رويتُ لها حادثة الحمار والتحرّيات التي قمنا بها من أجل العثور عليه. ضحكت حتّى سالتِ الدموعُ من عينيها، ثم قالت لي: أحبّك.

قال: كنتُ في المرحلة الأخيرة من الدراسة، ما شجّعني على الزواج بها. تمّ ذلك بعدَ أشهر من أوّل لقاء بيننا. وبعد سنة من زواجنا أنجبتِ جويس طفلتنا الجميلة: أماندا.

22

قلتُ له حين التقينا بعدَ سنوات: ألا تظنّ أنّ رهف هي التي ظهرتْ لكَ في هيئة فتاة أمريكيّة اسمها جويس؟

راقته الفكرة، فكّر فيها بعضَ الوقت ثمّ استبعدها.

قال: مع ذلك، كان لنصائح رهف جدواها، ولكلامها رونقُه الذي لا أنساه.

قلت: أكاد أجزمُ بأنّ رهف ما زالت تعيش معكَ على هذا النحو أو ذاك.

فكّر في كلامي، وقال: ربّما.

ثمّ ابتسمَ وهو يُلمّح إلى فكرة سابقة خطرت ببالي: ليتكَ تكتبُ أطروحة فلسفيّة حول ذلك لكي تهتدي بها الأجيال.

ابتسمت وقلت: سأفكّر في الأمر، وقد تكون لي أطروحةٌ مطوّلة هذه المرّة.

ثم أمضينا وقتاً غيرَ قليل ونحن نتأمّل رحلتنا في الحياة.

23

ذاتَ مرّة، أرسلتُ رسالة إليه.

أخبرته فيها أنّ فادية زارتني بعد انقطاع، وأبدتْ عتبها عليّ. قالت لي إنّ رهف عاتبةٌ عليه كذلك.

حين سألتها: ما السبب؟

قالت: بعدَ أشهر من الاستيلاء على الحمار، وبالتحديد في موسم التين والعنب، تصرّفتما، أنتَ وصديقك، مع شقيقتيكما تصرّفاً لا يليق بكما.

سألتها: ماذا تقصدين؟

قالت: تطلبُ من شقيقتك أمينة أن تنزل إلى الكرْم، تملأ سلّتها بالتين. ويطلب محمّد من شقيقته أمينة أن تنزلَ إلى الكرْم، تملأ سلّتها بالتين. تحمل البنتان سلّتي التين على رأسيهما وتمضيان معكما إلى المدينة. وفي الأثناء، يتحسّر صديقك محمّد على حماره، ويقول: لو أنّه معنا الآن لوضعنا سلّتي التين على ظهره.

وحينَ تصلان بابَ المغاربة تطلبان من الشقيقتين أنْ تسلّماكما سلّتَي التين، وأن تعودا من حيثُ جاءتا.

تعودان، وأنتما تدخلان المدينةَ وتبيعان التين، ثمّ تصرفان النقودَ التي قبضتماها على طعامكما وشرابكما، ولا تخصّان البنتين بقطعتين من حلوى، فهل يحقُّ لكما ذلك؟!

قلت لصديقي: ألقتْ فادية سؤالها عليّ ثمّ غادرتني وهي عاتبةٌ عليكَ وعليّ.

24

جاءتني رسالةٌ منه قال فيها: علينا أن نتقدّمَ باعتذارٍ لشقيقتي ولشقيقتك.

ثمّ تذكّر أنّ شقيقتي أمينة ماتت وهي تلدُ طفلها الأوّلَ والأخير. قال: يرحمها الله، ونظلّ مدينين لها باعتذار.

وقال، كما لو أنّه ما زال ذاك الفتى الذي يبحثُ عن حمار: أقترحُ عليك أن تُخبر زملاءنا الثلاثة، وكذلك ليلى بفحوى هذا الاعتذار.

قلت، مجاراةً منّي لمنطقه: سأكتبُ نصّ الاعتذار، وأطلبُ من أسد الغابات أن يحتفظَ به في الملفّ الخاصّ باجتماعاتنا.

قلت ذلك، وأنا غيرُ متأكّد من أنّ أسدَ الغابات ما زال محتفظاً بالملفّ الذي انطوى منذ سنوات.

25

هاتفني ذاتَ مساء من هناك.

حدّثته عن جحا حينَ جاءه جاره لكي يستعيرَ منه حمارَه لاستخدامه فيْ شأن ما.

كان الحمارُ مربوطاً خلفَ الدار، بحيثُ لا يراه الجار. قال له جحا: حماري ضاع.

فيْ تلك الأثناء نهق الحمار، فتعجّب الجار وقال لجحا: حمارُك لم يضع.

استغربَ جحا كلام الجار وقال: تصدّق الحمارَ ولا تصدّقني؟!

ضحكَ صديقي محمّد وأمعنَ فيْ الضحك، وقال لي إنّه ضحك حتّى دمعت عيناه.

26

هاتفتُه لكي أهنّئه بالعام الجديد.

تشعّبَ بنا الحديث، وجئنا على ذكر الحمار.

قال إنّه لا يتّفق مع المَثَل الذي شاع في مأثوراتنا: «الحمارُ حمار ولو بينَ الخيول ربى»، وذلك للحطّ من شأن الحمير.

وكنتُ، في معرض المزاح، أرجعتُ تصويته في الانتخابات للحزب الديمقراطي الأميركي، لاتّخاذه من صورة الحمار رمزاً له، دلالة على العناد، في مقابل صورة الفيل التي يتّخذها الحزب الجمهوري رمزاً له، دلالة على القوّة.

ضحك وقال إنّ هذا الرمز يثيرُ في نفسه ذكريات جمّة، لكنّه ليسَ السببَ الذي يدفعُه إلى التصويت للحزب الديمقراطي.

27

وكنتُ اشتريت رواية «الحمار الذهبي» لمؤلّفها لوكيوس أبوليوس، مترجمة إلى اللغة العربيّة، وأرسلتها إليه في البريد، وهي عن رجل مُهتمّ بالسحر، أحبّ أن يتحوّل إلى طائر، لكنّه تحوّل نتيجة خطأ غيرِ محسوب إلى حمار.

عانى معاناةً شديدة وخاضَ تجاربَ وأهوالاً شتّى أثناء ذلك، إلى أن ساعدته صدفةٌ مُواتية على استعادة وضعه إنساناً مثلما كان.

قرأها صديقي وأُعجبَ بها وشكرني لأنّني أرسلتُها إليه.

28

ولم تغبْ سيرةُ الحمار عن جَلساتنا.

ذاتَ مرّة، جاءت أماندا مع أبيها محمّد وأمّها جويس في زيارة إلى القدس.

دعوتُها هي وأباها وأمّها وعدداً من الأقارب والأصدقاء إلى تناول طعام العشاء في مطعم في حيّ الشيخ جرّاح.

تبادلنا حديثَ الذكريات، وكان لحمار صديقي حصّةٌ وافرة من هذا الحديث.

أخرجتُ من جيبي صورةً قديمة وجدتُها في ألبوم الصور لديّ. صورةً لحمار صديقي بعدَ العثور عليه، التقطتْها ليلى بالكاميرا التي لم تكن تفارقُ يدها، واستخرجتْ منها ثلاثَ نسخ، واحدة للملفّ، وأخرى لصديقي وثالثة لي. يظهر الحمارُ في الصورة واقفاً بثبات، في عينيه أسى، وأذناه متهدّلتان على جانبي رأسه بما يوحي بتعب وإرهاق.

دارتِ الصورةُ على الحاضرين، تأمّلوها وأبدوا تعاطفهم مع الحمار. تأمّلها محمّد مليّاً، وقلت له: هي هديّة لك.

أبدى أسفَه لأنّه أضاع نُسختَه في غمرة ترحاله من بلد إلى بلد. ثمّ تذكّر الملفّ وسألني عنه، قلت: بحثَ أسد الغابات

طويلاً عنه ولم يعثرْ عليه.

وقلت: من وحي حمارك كتبت قصصاً عديدة عن حمار تخيّلته، فصارَ لي حمارٌ من ورق وحروف.

مثلاً: كتبتُ عن الحمار الذي قرأ إعلاناً في الصحيفة اليوميّة، عن مدير النادي الليلي الذي طلبَ مطرباً لكي يغنّي لزبائن النادي. ذهب الحمارُ إلى المدير وقدّم نفسه بوصفه مطرباً لا يشقُّ له غبار. غنّى في الليلة الأولى بصوته الرخيم، وكانت نتيجة ذلك أنّ هربَ الزبائنُ من النادي، وقام المديرُ على الفوْر بطرد الحمار.

ضحكَ صديقي وضحك كلّ الحاضرين.

وكتبتُ عن الحمار الذي ذهبَ من القدس إلى رام اللّه مشياً على الأقدام. وعندما وصلَ حاجزَ قلنديا العسكري لم يسمحْ له جنود الاحتلال باجتياز الحاجز لأنّه لا يحملُ بطاقةَ هُويّة شخصيّة، ما اضطرّه إلى العودة إلى القدس، بعدَ أنْ أطلق تهديداً سمعه الضابط والجنود، مفادُه بأنّه سيعود إليهم مُحتجّاً كلّ أسبوع، إلى أنْ يسمحوا له باجتياز الحاجز.

ضحكَ صديقي وضحك كلّ الحاضرين، وأثنوا على شجاعة هذا الحمار.

29

وكنتُ كلّما قرأتُ قصيدة الشاعر الفرنسي جاك بريفير، تذكّرتُ حمار صديقي محمّد.

يقول في قصيدته: كلّنا سنموت/ الملكُ والحمار وأنا/ الملكُ من الضجر/ والحمارُ من التعب/ وأنا من الحب.

وأنا أقول: كلّنا سنعيش/ أنا وصديقي محمّد وبقيّة الناس/ يشجّعنا على ذلك قولُ شاعرنا: ونحن نحبّ الحياةَ إذا ما استطعنا إليها سبيلا.

30

ذاتَ مرّة، كتب إليّ وقال إنّه التقى الشاعرَ في هيوستن.

جاء إليها على أمل أن يُجري جراحةً خطيرة في القلب.

زاره محمّد وهو على فراش المرض في انتظار العمليّة الجراحيّة.

رحّبَ به الشاعر وسُرَّ بالتعرّف إليه. ثمَّ لم يلبث أنْ دخلَ غرفة العمليّات، ومكث فيها ساعات، ولم تُقيَّضْ له النجاة. ماتَ الشاعر مات. مات محمود درويش هناك بعيداً من وطنه ومن أمّه التي خاطبها في قصيدة، حينما كان في السجن الإسرائيلي وهو في ريعان الشباب:

أحنُّ إلى خبز أمّي وقهوة أمّي

وتكبرُ فيّ الطفولة.

عمَّ الحزنُ أفرادَ الجالية العربيّة، ومن ضمنهم بطبيعة الحال صديقي محمّد، الذي كان آنذاك رئيسَ الجالية.

نظّموا له جنازة لائقة، وأقاموا له سُرادقَ عزاء، ثمّ ودّعوه الوداعَ الأخير حين سُجّي جثمانه في الطائرة التي حملته إلى فلسطين.

31

على إثرِ ذلك، أبدى صديقي محمّد رغبةً في قراءة الشعر. أرسلتُ إليه دواوينَ الشاعر ومعها فيلمٌ وثائقي عن سيرة حياته، أنجزتْه مخرجة يهوديّة فرنسيّة، وفيه مشهدٌ لحمار يتحدّث عنه محمود درويش بعطف وحنان.

قال لي: هذه أجملُ هديّة أتلقّاها في حياتي.

وقال: كم أحببتُ شعرَ درويش!

قال: سرّني مشهدُ الحمار، أعجبني كلام الشاعر عنه.

سُررت لأنّ صديقي المنهمك في متابعة مصالحه التجاريّة، صار من محبّي الشعر والشعراء، ومن المعجبين بحمارٍ آخرَ غير حماره الرشيق.

32

مات الحمارُ بعدَ ثلاث سنوات من عثور صديقي محمّد عليه. شبحُه هو الذي ما زال يحضر بين الحين والحين. وهذا، في اعتقادي، يكفيه.

تمّ العثورُ عليه بعد سبعة أشهر من الاستيلاء عليه، في يوم غائم من أيّام الخريف.

كان محمّد يمشي صُدفة على مقربة من سور المدينة حين رأى الحمار، ولم يكن اللصُّ الغدّار هو الذي يمتطيه. اقترب من رجل ضخم الجثّة وسأله: من أينَ لك هذا الحمار؟

قال الرجل باستنكار: لماذا تسألني هذا السؤال؟

قال محمّد: هذا الحمارُ لي.

تعجّبَ الرجل وقال: كيف تقول إنّه لك؟

قال محمّد: سرقه منّي لصٌّ غدّار.

أصغى الرجلُ باهتمام لكلام محمّد، وبدا أنّه رجلٌ فاضل لا يُقرّ أفعالَ اللصوص.

سأله محمّد: هل تعرفُ الشخصَ الذي باعك الحمار؟

قال الرجل: لا أعرفه، لكنّني عرفتُ بالصدفة أين يُقيم.

قبضَ رجالُ الشرطة على اللصّ وأوْدعوه السجن، (عفا عنه صديقي ووالدُه شفقةً منهما على زوجته وأطفاله، ما خفّفَ العقوبة المفروضة عليه) وعاد الحمارُ إلى محمّد بعد أن فقد الأملَ في العثور عليه. وحرصاً منّي ومنه على الحمار، طلبنا من ليلى أن تلتقطَ له صورةً لإبرازها لمخفر الشرطة، ولتسهيل العثور عليه في حال تمّتْ سرقتُه من جديد.

33

ولا بدّ من وقوع مفاجآت تذكّرني بحمار صديقي، أو بأمر له علاقةٌ به على نحو ما.

في العام 2014 دعاني محمّد لزيارته، واقترح عليّ أنْ أقيمَ ثلاثةَ أسابيعَ أو أربعةٍ في بيت في مدينة سانتافي. قال إنّها مدينة هادئة، وبإمكاني أنْ أتفرّغ فيها للكتابة.

قدّمتُ طلباً إلى القنصليّة الأمريكيّة في القدس للحصول على تأشيرة سفر، دقّق الطلبَ موظّفٌ متجهّم الملامح، ثمّ قال بعد أن وجّه لي بضعة أسئلة: سنتّصل بك.

وكنتُ شاهدتُ الرفضَ في عينيه.

ولم تطلبني القنصليّة للمقابلة مرّة أخرى، لكنّ موظّفاً فيها، ربّما كان هو الذي استلم الطلب منّي، هاتفني مرّتين، سألني في الأولى عن تاريخ ميلاد أبي، وسألني في الثانية عن تاريخ ميلاد أمّي. شعرت من أسلوبه في طرح الأسئلة كما لو أنّني في امتحان، أو في تحقيق يُمارسه محقّق في أحد مراكز الأمن. ثمّ ذكّرني هذا الأسلوب بزميلنا، أسد الغابات، أثناء البحث عن اللصّ الغدّار، مع الفارق بينهما. زميلنا كان يتصرّف بعفوية وبراءة، وهذا الموظّف يتصرّف بتشدّد غير مفهوم.

قلت لنفسي: ربّما كان اسمُه المستعار: شمشون الجبّار.

ولم أظفر بتأشيرة سفر.

قلت لنفسي: ليهنأ بالُ شمشون الجبّار، ولينمْ ليلَه الطويل من دون كوابيس.

غيرَ أنّني استأتُ لأنّني لم أتمكّنْ من زيارة صديقي محمّد.

34

ورغمَ بُعد المسافات، واصلنا أنا وصديقي تتبّعَ أخبار ليلى وزملائنا الثلاثة بين الحين والآخر.

أنهت ليلى المدرسة والتحقت بدار المعلّمات، وتخرّجت فيها واشتغلت معلّمة، وكانت توصفُ بأنّها جميلة الجميلات، ثمّ اتّضح أنّها كانت على علاقة حبّ مع أحمد (برق السماء) الذي أنهى المدرسة والتحق بدار المعلّمين، وتخرّج فيها واشتغل معلّمًا، وتزوّج ليلى بعد محاولات عدّة من أهله وأهلها للتفريق بينهما. وكنّا ابتهجنا أنا وصديقي محمّد لهذا الخبر.

وأنهى شقيقُها جورج (حوت البحار) المدرسة، وسافر إلى بلغاريا لدراسة الطب، وكان طالباً مجدّاً. عاد بعد التخرّج إلى القدس وافتتحَ فيها عيادةً لاستقبال المرضى، وأصبح طبيباً مشهوراً يتحدّث عن براعته الناس. قلنا أنا وصديقي محمّد: مَرحى لجورج، مرحى!

وأنهى مصطفى (أسد الغابات) المدرسة، رغمَ ضعفه في الرياضيّات، واشتغلَ في تجارة الملابس مع أبيه، وما زال يعملُ فيها حتّى الآن. تمنينا أنا وصديقي محمّد مزيداً من النجاح لزميلنا مصطفى.

وبقيتْ رهف وفادية في ركن قصيّ في الذاكرة.

ولم يعدْ من السهل استحضارُهما بعد كلّ تلك السنوات. وكنّا أنا وصديقي نقول: لو كان بإمكاننا العودةُ إلى ذلك الزمن البعيد لكنّا التقيناهما. وكنّا نقول اعتماداً على ما تعلّمناه في حصّة قواعد اللغة: لو، حرفُ امتناعٍ لامتناع.

وكنّا نهزّ رأسينا في أسى ونقول: إنّه الامتناعُ الأكيد، مع الأسفِ الشديد.

وكنّا نقول: هكذا هي الحياة، تُعطي بسخاء وتأخذُ مثلما تشاء.

35

هاتفني ذاتَ مساء وقال: فكّرتُ منذُ يومين بأنْ أكفَّ عن ذكر الحمار، لأنّني منحتُه ما يستحقّه من اهتمام.

قلت: أظنّ أنّكَ فعلت.

قال: لكنّني فوجئتُ بشبحه يبرزُ لي في المنام، ويُنحي باللائمة عليّ لأنّني فكّرتُ في نسيانه.

- وبماذا أجبتَه؟
- وعدتُه بألا أنساه.
- هذا مُمكن، ولنْ تُثقلَ عليكَ ذكراه.
- أكيد.

قلت: ولكي يطمئنَّ حمارُك في قبره فسوفَ أدوّنُ قصّته من الألف إلى الياء.

قال: هذا جهدٌ مُبارك، وفيه تعويضٌ أكيد عن الأطروحة الفلسفيّة التي لم تكتبها حتّى الآن.

قلت: أظنّ أنّني لن أكتبها في المدى المنظور، مع أنّ الحاجةَ إليها أصبحتْ ماسّةً، بسبب انهيار القيم وانحطاط الأخلاق.

دَخلنا في حوار مُتشعّب حولَ ذلك. ثمّ أنهينا المهاتفة على أمل اللقاء من جديد، ربّما في القدس، وربّما في أيّ مكانٍ آخرَ بعيد.

القدس 27 / 8 / 2016



Publisher:
Tamer Institute for Community Education
P.O Box: 1973, Ramallah- Palestine
Tel: 02 2986121/2
Fax: 02 2988161
E-mail: tamer@palnet.com
Website: www.tamerinst.org

الناشر:
مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
ص.ب 1973 ، رام الله- فلسطين
هاتف: 02 2986121/2
فاكس: 02 2988161
البريد الإلكتروني: tamer@palnet.com
الموقع الإلكتروني: www.tamerinst.org

الطبعة الأولى بالعربية 2016
First Edition 2016

لوحة الغلاف للفنان فؤاد اليماني

ISBN : 978_9950_26_084_9

صدر هذا الكتاب بدعم من
Supported by



الإخراج الفني: أضواء للتصميم. هاتف: 02 2980552